الباب الرابع

ب ـ المنهج الفني

الفصل الأول : الإعجاز البياني في القرآن الكريم .

الفصل الثاني : حول القصة القرآنية .

الفصل الثالث : البنية التعبيرية في «الظلال» .

الفصل الأول
الإعجاز البياني في القرآن الكريم

كلمة في المنهج :

المقصود من المنهج الفني في هذه الدراسة هو كل ما يتعلق بالإعجاز البياني في القرآن الكريم ، ذلك الإعجاز الذي تعددت واجهاته المشرقة عبر الآفاق القرآنية فاحتوت مباحث جمالية ، تلك المباحث التي تناولها الشهيد في كتابه الطريف «التصوير الفني في القرآن» .

وسيتناول هذا المنهج أيضا قضايا جمالية تتعلق بخصائص أسلوب الشهيد وطرق تناوله ، والبنية التعبيرية لديه تلك التي استطاع بها أن يقدم هذا العمل الجليل في مجال التفسير في صورة جذابة رائعة بز بها غيره من المفسرين قدماء ومحدثين بلا مبالغة .

مفهوم الإعجاز الباني :

إن الإعجاز البياني ليبرز في ذلك النسق الفذ من الأسلوب الذي أرسى الله تعالى عليه قرآنه بجانب ما تضمنه من إعجاز متفرد في مجال التشريع وفي غير مجال التشريع .

لذلك بهر القرآن الكريم الناس قديما وحديثا وشغلهم ـ ومازال ـ وملأ عليهم مشاعرهم ، وبده عقولهم ، فراحوا يبحثون عن مكامن الإعجاز فيه ، كل واحد يبحث في إطار اختصاصه مستنبطا المضامين وموحياتها والدلالات وإشعاعاتها .

وقد صاحب سيد قطب ﷺ القرآن الكريم منذ حداثة سنه ؛ إذ حفظه ولما يبلغ العاشرة ، وسمع القراء يرتلونه في داره بالقرية طوال شهر رمضان المبارك فتشربت نفسه موسيقاه وهو لم يفقه بعد ما يحتويه من معان [١] .

---

(١) انظر : ما قاله في إهداء كتابه التصوير الفني في القرآن لأمه ، وانظر كذلك كتابه طفل من القرية ، ص٧٦ .

وكان سيد بسذاجته يجد في القرآن الكريم لذة ، ومضت به الحياة ، وفقه ما حوله ، ودرس تفسير القرآن في كتب التفسير ، كما درسه على الأساتذة بالمعاهد العليا ، ورغم ذلك فإنه لم يجد تلك اللذة التي كان يجدها في الصغر ، إنه وجدها في المصحف لا في كتب التفسير حينما عاد إليه صورة أخرى [١] .

إن سيدا من الأفراد الذين بهرهم القرآن الكريم بإعجازه ، فراح يبحث ــ وهو المزود بالذوق الأدبي الرفيع والحس النقدي الرهيف والمعارف العلمية الواسعة ـ في آفاق الجمالية إلى أن عثر على مكامن الإعجاز البياني فيه ، وكانت النتيجة أن أصدر كتابه النفيس «التصوير الفني في القرآن» ، وكتابه النفيس الآخر «مشاهد القيامة في القرآن» ثم بعد ذلك في «ظلال القرآن» .

وقد استطاع في كتابه «التصوير افني في القرآن» أن يتحفنا بمباحث جمالية جديدة نؤلف في مضمونها نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم ، وتتألف باختصار مما يأتي :

١ـ تصوير عن طريق التخييل الحسي والتجسيم .

٢ـ التصوير عن طريق التناسق الفني .

٣ـ القصة في القرآن .

ومن خلال هذه المباحث الفريدة يقدم لنا الأستاذ الشهيد إعجاز القرآن في المجال البياني على نسق جديد ، وفريد يمتع قارئه أحسن تمتيع ، ويزوده بكثير من المفاهيم في عالم الجمال البلاغي ، مما جعلني أقول فيه منذ ثلاثين سنة بمناسبة «لم يأل فيه صاحبه جهدا ، ولم يعجل به قبل أن تجتمع لديه كل أسباب النجاح والتوفيق ، لذلك استحق أن يأخذ مكانه في المكتبة العربية التي هي في أشد الحاجة إلى مثل هذا الكتاب الفذ الفريد من نوعه » [٢] .

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) انظر : صحيفة الحسنى العدد ١٩ ، السنة الأولى ، محرم ١٣٨٢ ، يونيه ١٩٦٢ .

مضى سيد قطب ، عليه الرضوان ، في تفسيره يطبق نظرياته الجديدة في التفسير البياني ، والمباحث الجمالية على المنهج الذي التزمه في كتابه «التصوير الفني في القرآن الكريم» بأسلوب يتناسق وجو الدراسة التي يتناولها ، من ذلك قوله موضحا ذلك بقلمه المبدع المطيب :

التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النموذج الإنساني شاخص حي وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية [1] .

من نماذج ما ورد في القرآن الكريم من الإعجاز البياني التصوير الفني في أنماط مختلفة ـ منها التخييل الحسي ـ وهو ما لفت نظر سيد قطب فحفزه إلى دراسة التصوير الفني في كتاب الله دراسة جمالية علمية دقيقة ترفدها الحاسة الفنية الرهيفة وتثريها ثقافة أدبية نقدية وموسوعية .

من ذلك قوله تعالى مصورا لوحة من لوحات الكون : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٥ـ١٨] .

فالمشهد ، كما لا يخفى ، يشمل حركة تصويرية تبرز الكواكب السيارة ، ويشمل حركة تصويرية لليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، فالصور تترى عجيبة توحي بإعجاز رباني متفرد .

فماذا قال سيد قطب عن نظريته في «التصوير الفني» في الآيات .

---

(١) التصوير الفني ص ٣٤ ، وللمزيد من التفصيل راجع هذا الكتاب .

قال ~ : «والخنس الجواري الكنس هي الكواكب التي تخنس ، أي : ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء ، وهي تجري وتختبئ في كناسها ، وترجع من ناحية أخرى فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب ، وهناك إيحاء شعوري بالجمال في حركتها في اختفائها وفي ظهورها ، في تواريها في سفورها وفي عودتها ، يقابله إيحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه ، والليل إذا عسعس ، أي : إذا أظلم ، ولكن اللفظ فيه تلك الإيحاءات كذلك فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين عس ، عس وهو يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل وهو يعس في الظلام بيده أو رجله لا يرى وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع .

ومثله ، والصبح إذا تنفس ، بل هو أظهر حيوية وأشد إيحاء والصبح حي يتنفس ، أنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي ، وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيرا لهذا التعبير عن الصبح ، ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ، ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح» [1] .

لأجل ذلك ، أعد «الظلال» كتاب تفسير وكتاب مباحث جمالية على نسق جديد يخصب الطاقة الفنية ، ويثري المكلة الأدبية ، ويغني الروح الإسلامية ، ويبعث فيها الحياة والحركة ، ويجدد نشاطها إن هي أحست مللا ، ويقودها إلى آفاق وضيئة بمفاهيم جديدة إن هي شعرت بنصب .

*****

(١) انظر : الظلال ، المجلد ٨ ، ص ٤٨٢ .